العدد(1486) السنة السادسة -الاثنين (20) نيسان 2009 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mamil: almada@almadapaper.com

رمـــــوز الخـــصـــب والانـــبـــعـــاث

جاسم عاصي

اشتغل كتاب (تأويل النص التوراتي) للباحث (ناجح المعوري)، على رموز الخصب والانبعاث في الحضارات القديمة. فإذا لاحظنا أن إشارة غلاف الكتاب تركزت على نبات (اللفّاح) حصراً، إلاّ أنها امتدت في متون المباحث إلى المقارنات وكشف المتقاربات والمتشابهات، ثم التناصّات بين مختلف تلك الرموز ذات الخصائص النباتية،استطاع العقل الجمعي أن يجري على مفاهيمها نوعاً من التقشير والإضافة عبر إزاحة بعض الخصائص وإضافة خصائص جديدة معنية بالدلالة المرتبطة بالزمان والمكان والمتشكل ألمعتقدي للأقوام والشعوب. أي صياغة مفاهيم جديدة على وفق رموز موروثة وجديدة في آن واحد.

وعلى سبيل ما عالجه ولاحقه المبحث في الكتاب. فالنبات يتصل بالأرض الأم، حيث يعمل كرمز و مؤدي لوظيفة مركزية متمثلة في فعله الإخصابي الأسطوري على مستويين هما: وظيفة كونه ابناً منتجاً يُقتطف من رحمها، فهي الأم الكبرى للإله الشاب،ووظيفته الثانية ؛ كونه يعيد فعل الإخصاب من خلال العودة إلى رحمها ، لكي تتحقق دورة الإخصاب في الحياة. وهذا الوصف للرمز النباتي معني بالموت والانبعاث كنبات الحنطة مثلاً وعلى ضوء ما ورد في الإنجيل ؛ من أن موت حبة الحنطة سيولّد سنبلة تحمل عشرات الحبّات. هذه الدورة في الحياة يعيد الباحث فحصها، مستفيداً من جميع الدلالات. فالنبات هذا، وكما وصفه الباحث وبقية المصادر الأخرى ؛ هو.. نبات (اللفّاح ـ اليبروح ـ الأندريك)، هي تسميات مناطقية تُتخذ لها صفة وصيرورة على وفق مخيّال الشعوب والأقوام، لكنها تؤدي وظائف متقاربة إن لم نقل متشابهة، خاصة في النتائج ـ أي الإخصاب ـ وتعطيل العُقر الأنثوي حصراً. لذا فهو عبارة عن (جذور متشعبة على غرار شوكة الطعام، ولون قشرته أسود. ومن الداخل ابيض وطري، وطوله الذي يبلغ زهاء القدم يكاد يشبه إنساناً بساقين. ويوجد أحياناً جذر جانبي يكون بمثابة الأعضاء التناسلية وساقه شعري، وزهوره كأسيه الشكل، ولونه أرجواني صارخ، وثمره ينضج في موسم حصاد الحنطة، أصفر وحلو، وسائغ المذاق. وما يزال الفلسطينيون يعتقدون أنه يصلح علاجاً للعقم) ص٧

هذه الخصائص تأخذ من خصائص نبات (اليبروح) الذي ذكره (جيمس فريزر) في (الغصن الذهبي). ولعل هذا التبادل في الخصائص، هو نوع من التناصّات التي يعتمدها العقل الجمعي في إنتاج وإعادة إنتاج ألأساطير المتضمنة مفاهيم وعقائد تولد أسساً تمكّن الإنسان من السيطرة على الطبيعة، باعتبارها المواجه الوحيد لفعاليته ووجوده في الكون . لكن وكما ذكرنا أن مثل هذا التقارب والتشابه، كان متأتياً بفعل التقشير والإبقاء على ما هو مركزي في الخاصية والتأثير. وعند إجراء مقارنة بين خصائص هذا النبات والآخر نتوقف على فعل التقشير الذي أبقى على ما هو دال على أن ما حدث هو نوع من الترحيل المصحوب بإجراء تغيير في الصفات ، أو هو من تشكيل العقل الجمعي، إذ احتفظت فيه ذاكرة الشعوب التي تجترح مفاهيمها وأنظمتها الفكرية من ظاهرة الطقوس والشعائر التي تقيم نوعاً من التواصل مع الحياة، وإدامة خصوبتها وتواصل عطائها، وحصراً المحافظة على البقاء. وما نبات (اللفّاح) ؛ سوى تأكيد على صراع سلطة الذكورة والأنوثة في التاريخ. وكما أكد الباحث على أن مجمل الانزياح الحاصل على مظهر النبات، والبقاء على تأثيره ووظائفه، هو الأمر الأهم في حركة الظواهر في التاريخ. فاستبدال الكلب الذي يسحب النبات من الأرض لغرض القطف والانتزاع في (اليبروح)، يقابله وجود الحمار للسحب في نبات (اللفّاح). كذلك وجود متغيرات في الصفات والخصائص ـ كما ورد في المبحث ـ، لكنه يؤدي نفس وظيفة الإخصاب التي تحاول مباحث الكتاب تداولها ودراستها للخروج بنتائج تصب في مركز متابعة رموز الخصب عبر تناصاتها. فمن خلال المنهج المقارن الذي اتبعه الباحث في مجمل كتبه ابتداء من كتاب (موسى وأساطير الشرق) وصولاً إلى كتاب (أساطير الآلهة)، فهي تنطوي على مباحث مقارنة، الهدف منها التوصل إلى جملة نتائج تشير إلى نظرات الباحث للتاريخ وسردياته، وبالأخص التاريخ الأسطوري الذي ينطوي على توليد متواصل لمثل هذه العقائد. فهي إن اختلفت توجهاتها وصورها إلاّ أنها تتداخل في ما بينها، وتتناص مع بعضها بحيث تتحول من سردية أسطورية إلى سردية تاريخية بفعل التراكم . من هذا نجد أن كتاب (تأويل النص التوراتي) يقيم صلة بحثية مع الكثير من المتماثلات في التاريخ، وحصراً في تاريخ المعتقدات والأديان. وتعتمد هذه القراءة على مجموع مستويات. ذلك لأن الكتاب يعتمد جملة توجهات في طرح ما تضمنته الدلالة في قراءة هذا النبات. ولنأخذ مبحث الانزياح باعتباره موضوعاً يثبت بالدليل الأصول التي اشتغل عليها النبات دلالياً. وكما ذكرنا حصل نوع من الانزياح في الثوابت والخصائص هي كالآتي:

نبات اللّفاح ○ السحب بواسطة الحمار مصحوب بصرخات ـ صفات عامة وخاصة ـ موت ـ
حياة جديدة في رحم المرأة
نبات اليبروح ○ السحب بواسطة الكلب مصحوب بصرخات ـ له صفات خاصة ولب عند التقشير ـ
ساقان وعضو تناسلي ذكوري ـ موت عند القطف ـ حياة جديدة في رحم المرأة

وفي كلا فعليّ القطف للنباتين يحصل موت الحمار والكلب ، باعتبارهما فعلين مصاحبين لأقانيم القطف. ويعبر الكاتب عن هذه الطقسية ونعني فيها القطف والإنبات الجديد في الرحم ـ الإخصاب ـ كالآتي :

اللّفاح ○ ألأرض + راحيل ـ الأم ـ الأنوثة
راؤبين ○ ذكورة + الأرض ـ راحيل ـ ليئة

ولكي تتحقق المعادلة في الحياة يؤكد على:

○ موت الإله الشاب/ القمح ـــ انبعاث إله شاب/ اللّفاح

ثم انبعاث الإله وكالآتي :

○ موت الإله الشاب ـــ موت الحمار ـــ إخصاب راحيل

ولدى مقارنة ذلك وعلى ضوء نبات اليبروح نجد ثمة متماثلات في كلا النباتين. وهذا أيضاً يضعنا أمام صورة التماثل في جانب المعرفة التي تدير الحياة، عبر حالة الصراع بين سلطة الألوهة المذكرة وسلطة الأنوثة المتمثل في رؤية البحث للإخصاب. سيّما دلالته المعرفية والثقافية عبر التاريخ وصعود هذه السلطة أو تلك على حساب الأخرى. وذلك بانسحاب الرموز الدالة عليها كالرموز الزراعية والرعوية. إن انبعاث سلطة الأنثى وبروزها في التاريخ يتمثل بموت نبات اللّفاح عند القطع وعودته للحياة من خلال تخصيب رحم راحيل، ومن ثم ولادة (يوسف)، وهي فكرة استندت عليها الثقافة الشرقية القديمة من خلال وجود ثنائية الموت والانبعاث، العقر وإنهائه أو توقفه. وهو تجسيد لصراع بين أنثى وأنثى متمثلاً في (راحيل وليئة)، وصراع ذكوري متمثلاً في (يعقوب وراؤوبين الأبن). وهذا الصراع أسفر عن نتائج لصالح سلطة الأنوثة بولادة (يوسف). ولعل الآبار ومصادر المياه كانت هي الحاضنة التي من خلالها تتم مثل هذه التداولات في الحياة كبئر زمزم وعلاقته مثلاً مع (هاجر واسماعيل) وبئر سبع لابان وعلاقته بإبرام، ثم بئر يوسف. هذه الحواضن تؤشر أيضاً في مداورة ثنائية الموت والانبعاث المتمثل في صراع الموت الرمزي في حياة (موسى) في النهر، والانبعاث من جديد في لحظة انتشاله من النهر. وهي نفس الحكاية التي حدثت في سيرة (سرجون الأكدي) مثلاً. ما نريد أن نصل إليه هو حقيقة التوالي والنسخ في التاريخ والتاريخ الأسطوري. وهذا يعيدنا إلى أسطورة الإله (تموزي) السومري، ورحيله ـ موته ـ إلى العالم الأسفل، ثم انبعاثه من جديد، كي يجدد الحياة ويديمها. هذه الأفكار هي ما اعتمدها الكتاب، لكي يصل إلى نتائج لصالح وجهة النظر المستندة إلى المنهج المقارن، وعبر التأويل الذي يفتح آفاق كثيرة، ذلك لأنه حراك ثقافي يرمي إلى البحث الدقيق والتقصي عن المتماثلات من خلال تفكيك الكليات والأجزاء وإعادة تركيبها. ومن خلال هذا يتم التوصل إلى نتائج لصالح القراءة للرموز والظواهر، لأنه يتوقف ـ كنظرة فاحصة ـ على الأسس التي ساهمت في خلق هذه الثيمة أو تلك، وينبه إلى المتشكّل والمضاف. وهو ما يقود باتجاه فحص الموجود ـ الكل وفحص الأجزاء بعد التفكيك.

إن منهج الباحث (ناجح المعموري) يقود إلى نتائج تؤكد ما هو بصدد تقريبه، ونعني هنا تقريب الأجزاء من الكليات، الغرض منها إثبات الصورة التي أتى عليه توجهاً مبنى البحث في مؤلفاته، سيّما كتبه التي بحثت في الأصول والفروع، أي الجذور والإضافات الجديدة. مع دراسة المتن التاريخي الذي هو الدليل المعياري لمثل هذا المداخل في البحوث والتقصيات. ذلك لأن ما يرمي إليه البحث هو ؛ الجمع والفحص عن ما يستدل على الوجه الصحيح أو المفترض. إذا ما نظرنا إلى كل بحث باعتباره مشروعاً معرفياً ثقافياً، يرمي إحداث نوع من الحراك الذي يكشف عن وجه الحياة الأنصع. ذلك لأن التاريخ قد يُعيد نفسه في الأجزاء، ويصبح مهيمناً لزمن ما. إن فحصنا لصيرورة ما نعيشه من خلال التشكيك يقود إلى واقع حياتي معرفي متحرك. قد يُحدث صراعاً سلمياً، لكنه بالنتيجة يوصل إلى منطقة سلام معرفي.

فالباحث في كل ما ألّفه في كتاب وماتبناه كأفكار، إنما قاد جهده باتجاهات مختلفة، غير أنها تنحصر في كيفية استجلاء الحقائق عبر جلي الأجزاء والكليات في التاريخ والتاريخ الأسطوري. ثم إقامة صلة مؤكدة على ترابط الأسطوري والتاريخي في فترات زمنية كثيرة، حيث مرّ التاريخ القديم ببروز سلطة الأسطورة متمثلة بالآلهة وسلطتها الدينية.

إن الباحث أكد أن "قلع نبات اللّفاح من الأرض يعني إجراء فعل تحويلي له، من باطن الأرض إلى باطن الأم / راحيل، ليؤكد بسحريته خصوبة مؤكدة. لأنه ينطوي على وظيفة لها صلة مباشرة بتجديد الحياة، "ص٢٣، لأن النبات هذا هو علامة ذات قوة وطاقة خصبت راحيل. وهذا له علاقة بتشكيل العلاقة بين (يعقوب وراحيل) وهي علاقة بين مستويين كان للتأثر الرعوي المتمثل في راحيل باعتبارها راعية للغنم. وكما أكد الباحث وجود خصائص أخرى لراحيل هي جمالها وخبرتها الرعوية ومعرفتها بحياة الحيوانات والعلاقة فيما بينها. وهناك دليل يثبت مثل هذه الطاقة التي تمتلكها ، سيّما في لحظة لقائها بيعقوب وهو يبحث عن خاله (لابان) والد (راحيل). هذه الطاقة انصبّت على قدرة يعقوب برفع الصخرة عن فم البئر لسقي أغنامه وأغنام راحيل. وهنا يكون ماء البئر من أقام مثل هذه العلاقة، وكشف عن الرغبة التي انسحبت بعد ذلك في طلب يعقوب الزواج من راحيل. وحين أخفق زواجه وانكشف عن خدعة زواجه الأول عاد وطلب أن يُقدم نفس الثمن من أجل الزواج من راحيل مجدداً. ذلك لأن هذا الزواج في حقيقته يُعيد الخصب لحياته ويجدد نسقها الذي تنمط من خلال علاقته بـ(ليئة) وابنها (راؤوبين).

من المكتبة العالمية

كتب جديدة عـــن شكسبيـــر

ترجمة: جمال جمعة

-١-

١. ويل في العالم: كيف أصبحَ شكسبيرُ شكسبيراً

Will in the World: How Shakespeare Became Shakespeare

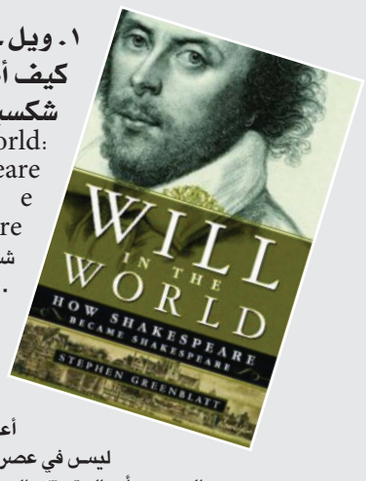

شاب من ضاحية صغيرة . بلا ثروة أو علاقات ولا تعليم جامعيّ . ينتقل الى لندن. وبزمن قصير ملفت للإنتباه يصبح هذا الشاب أعظم كاتب مسرحيّ، ليس في عصره فحسب، بل وفي كل العصور. أعماله تحتكم الى خبرة مدينية وأول مرة تردد فيها إسمه على المسارح، حوّل فيها السياسة الى شعر. كان بلا إبالية يمزج التهريج المبتذل ببصيرة الفيلسوف. كيف يا ترى يمكن تفسير مثل هذه الظاهرة؟

أن هذا الكتاب "ويل في العالم"، هو نسيج فكريّ بارع يضفر التقصّي الدقيق لطبيعة العصر الإليزابيثيّ في إنجلترا مع المسرد الحيّ لحياة هذا الكاتب المسرحيّ. هنا نرى شكسبير وقد إكتشف موهبته، ثم نتابعه وهو ينشئ عائلته، ويصوغ مهنة لنفسه في عالم لندن المسرحيّ، حيث التنافس الوحشيّ الذي لا يرحم كان على أشدّه آنذاك، في الوقت الذي كان عليه أن يتصارع مع قوى دينية وسياسية خطيرة يمكنها أن تحمل أشخاصاً، أقلّ فطنة منه، الى حبل المشنقة.

وعلاوة على ذلك، فإنّ مشهد أعماله العظيمة لن يغيب عن أبصارنا أبداً في هذا الكتاب: حلم ليلة صيف، روميو وجولييت، هاملت، ماكبث، وغيرها من الأعمال التي إستمرت بعد أربعمئة سنة في إبهاج ومتابعة المشاهدين لها في كلّ مكان. إنّ الحقائق المتعلقة بالسيرة الأساسية لحياة وليم شكسبير كانت معروفة منذ أكثر من قرن، لكن الآن يرينا الكاتب ستيفن غرينبلات Stephen Greenblatt كيف يمكن لتاريخ مثل هذه الحياة الإستثنائية أن يكون سبباً في ظهور أعظم كاتب في العالم.

٢. تخيّل شكسبير : تاريخ النصوص والرؤية

Imagining Shakespeare: A History of Texts and Visions

يستكشف لنا أحد الرواد الشكسبيريين الأوائل، في هذا الكتاب المصوّر والجميل، الطرق التي تمّ تخيّل شكسبير بها إبتداءاً من الزمن الذي عاش فيه وحتى عصرنا الحاضر. فمن خلال سلسلة ثاقبة من التأويلات والشروح يستجلي لنا ستيفن أورجل Stephen Orgel التهكّمات والمفارقات التي ميّزت إعادة بناء نصوص شكسبير، صورته، إخراج وتزيين مسرحياته، وذلك على إمتداد القرون الأربعة الماضية، وحتى هذه اللحظة التي يعاد فيها خلقه باستمرار في خواتيم عصرنا الثقافية الجديدة. يعجّ الكتاب برسوم متنوعة للأداءات المسرحيّة وتواريخ للنصوص والفنون البصريّة (من ضمنها فصل خلّاب للبورتريهات). يكشف "تخيّل شكسبير" عن مدى التفنن الثقافي، الإناقة، الإستبصار والذكاء الذي أصبح دمغة مميزة لإسلوب ستيفن أو الرجل الذي يسند معرفته بشكسبير الى السجلات التأريخية، وبضمنها المصنوعات المادية كالمخطوطات الأصلية، المنحوتات واللوحات الفنية وغيرها.

وحـــده الـــتراب يـقـهـقـه لحـســام الـســراي

حربي محسن عبدالله

عن دار الفارابي في بيروت صدرت للكاتب والشاعر حسام السراي مجموعة شعرية تحمل عنوان (وحده التراب يقهقه).تحتوي المجموعة على اثنتين وعشرين قصيدة. تنتقل بنا القصائد من معزوفة الرموش وتراقصها إلى انفجار جند من الحديد والنار وهم ينصبون شراكا حول الأشلاء، وبعين راصد لما يجري في العراق من موت ينثر الدماء على أرصفة الشوارع يصف لنا الشاعر لعبة التجاذب والتنافر في مصافحة أو مفاخذة الشرق للغرب أو العكس. وكعراقي يعيش أحداث وطنه ويتجرع كأس التغيير ويدخل شاء أم أبى لهذا الأتون المهلك، نجد مفردات الاحتراب والاجتثاث والرصاص وحزّ الرقاب وشحذ السكاكين، نجدها وقد رصت إلى بعضها في قصيدة لعبة التجاذب والتنافر. ثم يعود بنا الشاعر لربة البيت التي دخلت السياسة من باب سخرية الرجال بها ولتسخر ممن وضعها في سجن (البرتقالة) أو في سجن قضبانه الخمار والعباءة. وفي هزيمة الذمم التي تحولت في سوق غير مقدسة إلى ذمم مفروشة للإيجار أو البيع، بعد أن هزمتها فسحة الفم أو حرية التعبير، ثم ينقلنا إلى كوة بلا شرفة حيث أثقل المارقون ظهرها الأملس وبعثروا عطرها وأحمر شفاهها ومسرح شعرها ولم ينسوا كسر مرآتها وهو بهذه القصيدة يحاول أن يخرج قليلا من مفرداته الدامية السابقة إلى مدى أوسع وإن قادنا إلى صراع الفصول. حّبات المطر قدّاح الصباح تمر آب، مفردات طفت على سطح قصيدة صراع الفصول كي تبشر بلحظة أخرى لحظة موت وحياة أو على حدّ تعبيره لحظة ممسرحة تحتكر الأدوار. لم ينس شاعرنا الديمقراطية في قصيدته جنائز الكتب والتي قدمها بإهداء إلى تسويف رجالات العهد الجديد، فقد اقترب مما أسماه علبة الديمقراطية يقول علبة الديمقراطية وليست لعبتها ثم يضيف عود ثقاب من الإنعتاق وهو لايزال يشم رائحة البارود. يجرنا بعدها إلى الكارثة في بغداد عندما تكون فتاة لا ذنب لها وعليها أن تصمت وتحيا شاردة الذهن، تداس بأحاديث اللعنة عادة لأن أولي الألباب لهم في الكارثة التسبيح بحمد الفواجع. وكأن الشاعر عاد بنا مجبرا إلى زعيق المفخخات الذي يجرح روح الورد. يعبر بنا السراي في قصيدة لاسمها مناسكي إلى صلاة وضريح حيث يقول:

أصلي عند حضرة إنسانك
وأزفّني نذورا لضريح فعلك
فاحتملي أن أنزهك عن أنوثة،
لا يجفل منها التاريخ
واصعدي ظهر جنوني
تمضين به حيثما شئت
لكن اركني جسدك بعيدا

وعندما يتجاوز الشاعر اسمه- الذي يحضر ذكره ساعة القتال لتحتضنه المواجع ذلك الاسم الذي يرفعونه دثارا للهزائم وكذلك يرفعونه في زحمة المحتفين بنصرهم- نحو اسم أبيه نجده وقد شرّع باب الفضيحة أمام ملوك الطوائف أو تقمص روح آخر ملوكهم قائلا:

يفضحني أمام ملوك الطوائف
يوزعني بين فراديسهم
يؤويني هذا ويطردني ذاك
عنوة أنخرط مع جموع المتمترسين
في حروبهم

ثم نأتي إلى القصيدة التي كانت عنوان المجموعة الشعرية وهي قصيدة (وحده التراب يقهقه) وهي استحضار لما تتركه السرادقات المكتظة بالمعزين والتي تحولت إلى رمز من رموز حياتنا التي تلامس الموت في كل لحظة وكأنها قاسمنا المشترك بل وجزء من صلب حياتنا. كما للتراب الذي يشتاقنا ضمّا وتقبيلا لكي يبلل لحى قومنا بالدموع أو لتكون على حد تعبير شاعرنا لحى من دموع على لحمنا المتناثر. ويقهقه التراب عندما يحتسي نخب التناثر لأدمغة جديدة، وبرغم عودة الشاعر مرة أخرى لمفردات الموت إلا أنه لا ينسى تلك الطالبة البصرية التي أعتدي عليها باسم النهي عن المنكر وشاهدها العالم عبر الفضائيات وهي رهن منْ وضع نفسه قيّما على أرواح العباد. يقول السراي في قصيدة وحده التراب يقهقه:

لحى من دموع
تلتمع بها صورتي الواجفة
في ملاعق السرادقات المكتظة
أكوام من آمال
التمعتْ بها طفولتي البائدة
على هزال الصورة وطفولتها
.....
.....
المنسيون يجلون الصمت أيضا
لكنهم يفكون طلاسم (الجديد)
الحرية:يصفعونها سّبأ في الحافلات!
القانون: شرطي مرور مذبوح بإشارته
الحمراء!
حقوق الإنسان: طالبة بصرية نهوها
عن المنكر!

بعد قصيدة وحده التراب يقهقه نجد فسحة للأنثى ومفردات أخرى تعود بنا للأمل وأي شيء يذكرنا بالأمل أكثر من الأنثى وخصلات شعرها التي تخبئ ذكريات الحب ومن الأنثى نحو المجهول لتأخذ الغربة نصيبها من روح الشاعر وقصائده. هذه الغربة التي فرضت على العراقيين على مختلف مشاربهم منذ عقود ولما تزل فيقول في قصيدة صفعة رياء:

صوب مجهول
نبتاع أوطانا
ولا تشترينا
يقتفي أهلنا ونقتفي رائحة بعض منا
نبحث عن صمت ألذ ليكون طعامنا
ونشرب من خيبة أمطرتها خدودنا
بقايانا تحملنا إلى فضاءات أكثر غموضا
لكنها أقل ذعرا
من خريف العراق اللامنتهي

ختاما نود القول بأن حسام السراي لامس في مجموعته هذه الكثير مما يعانيه العراقيون بروح لم تفارق الإحساس الجمعي والتعبير الجمعي عن الفواجع والموت والأمل الذي يتقلب بها وطننا في حياة أشبه بالحريق وفي انبعاث دائم من الرماد وإن علت لليأس رايات وطفا على السطح التشاؤم.

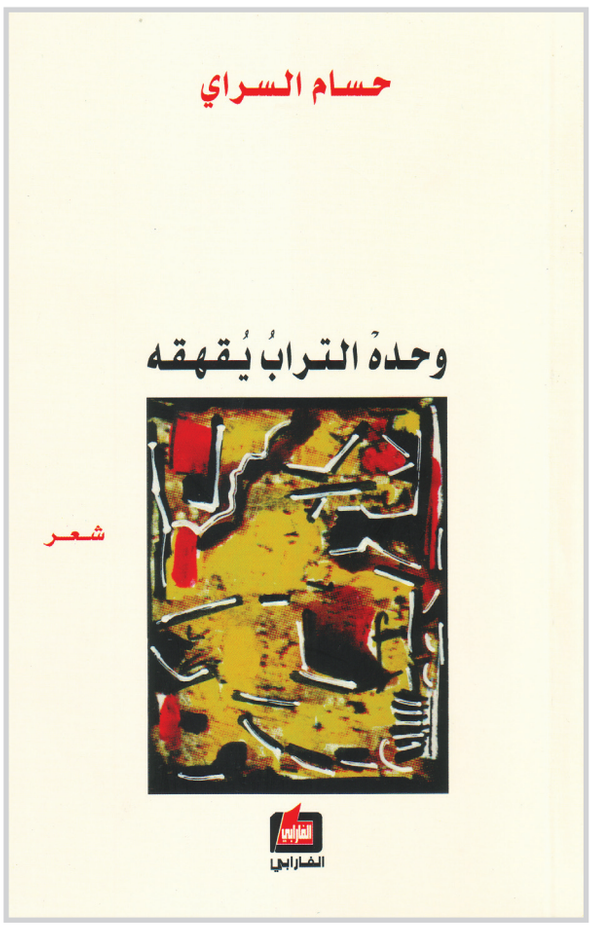

خـــوزيـــه ســـاراماغـــو.. المـــوت في إجـــازة

ترجمة:اسماعيل خليل مجيد

في عمل ساراماغو الأخير "DEATH WITH INTERRUPTIONS"- ، ترجمتها إلى الانجليزية مارغريت جول كوستا، وترجمتها الحرفية "الموت مع المقاطعة" لكن مع قراءة الرواية يمكن أن تكون ترجمة عنوان الرواية "الموت في عطلة"- تزدحم المستشفيات بالمرضى الذين لا علاج لهم، وبكبار السن المحتضرين. وجود هؤلاء وما يتطلبه الإنفاق على العجزة، يرهق كاهل دافعي الضرائب في ذلك البلد الذي استثناه الموت، وتحدث أزمة اقتصادية تبدأ بانهيار شركات التأمين على الحياة. لا تحتمل الأسر عذابات الآباء وهم على أسرة الاحتضار يتقلبون من شدة الألم، فتسعى تلك الأسر إلى الاتصال بمافيا منظمات التهريب وتدفع لهم مبالغ كبيرة لتقوم بتهريب المحتضرين إلى بلد مجاور ليموتوا هناك.

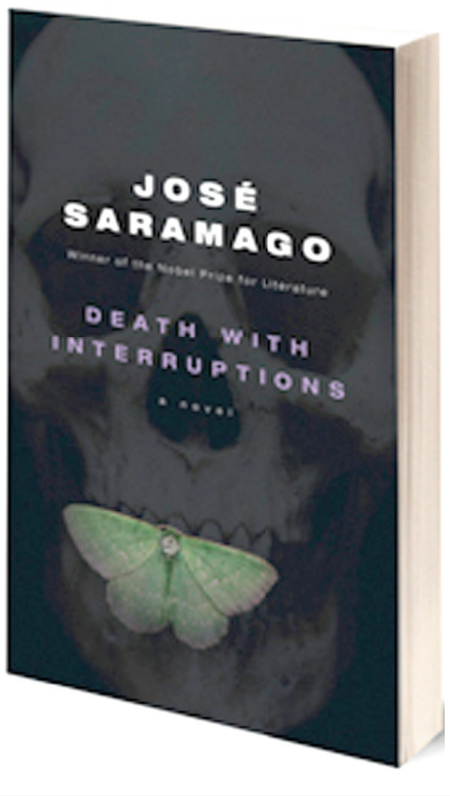

عمليات الانتحار محكومة بالفشل، فلا خلاص ولا بد من مواجهة المشاكل المستعصية. كل الأشياء تتخذ مظهرا آخر ما دامت الحياة قد اكتسبت معنى آخر في غياب الموت.

الموت في اللغات الأوروبية مؤنث، على العكس من اللغة العربية، لهذا يصوره ساراماغو أنثى غريبة الأطوار، يتاح لها في وقت العطلة هذه أن تغادر كهفها البارد تتأمل الآخرين وتعرف معنى الحب والرأفة والعطف.

لتخفيف التذمر الذي ساد البلد من جراء ذلك الإضراب، تختار (الموت) عددا من الأشخاص وتبعث إليهم برسائل تحذير داخل مظاريف بنفسجية لا بد أن يردوا عليها لتمنحهم مدة أسبوع لترتيب أمورهم قبل مغادرتهم الحياة. لكن أحدهم لم يرد، فتبعث برسالة ثانية وثالثة ورابعة، أخيرا تقرر غاضبة الذهاب بنفسها لتتحقق من الأمر، ولأنها لو تجسدت لرأى الناس منظرها القبيح، فتتجول بشكل غير مرئي مخترقة الجدران والأبواب، وتجد أن ذلك الشخص الذي رفض الرد على رسائلها عازف على آلة الجلو في التاسعة والأربعين من عمره، قد استسلم لقدره، وقد نام وبجواره كلبه. تبدأ بتخيل فعالياته الروتينية المحتشمة، العزف على الجلو، التنزه مع كلبه والذهاب لاقتناء الصحيفة. تبقى هناك لتراقب العازف. يجلس الكلب في حضنها غير المرئي فتلامس للمرة الأولى جسما ينبض بالحياة. تقترب من الجلو وتحرك أوتاره فتسمع أنينا لا تلتقطه الأذن البشرية. تعود إلى كهفها وتغير مظهرها فتصبح امرأة في الثلاثين من عمرها، وتختار ملابس جذابة، وتعود إلى المدينة وتحجز مكانا في أحد الفنادق، وتشتري تذكرة لحفلة موسيقية يشارك فيها عازف الجلو. لكنها لا تنسى أن تحمل معها الرسالة المميتة، وتلك خطتها لإيصال الرسالة إليه. في تلك الحفلة، أمعنت النظر في العازف الذي يقدم عزفا راقيا. تلتقي معه مرة ثانية وثالثة، يتحدثان عن موضوعات شتى تتجلى من خلالها قدرة الكاتب ساراماغو على تكثيف الأفكار والتناقضات بأسلوب يجمع بين الكوميديا وجدية الفلسفة. يقول لها العازف: "أنت لا تعيشين في هذه المدينة." فتجيبه: "ليس بالعيش الذي تقصده... الحديث معك مثل أحدهم يجد نفسه في متاهات بلا أبواب." لم يفهم عازف الجلو المرأة التي يتعامل معها، غير أنها تعرف ذلك ولم تعد تتحمله. تنوي تسليمه الرسالة، فتلك مهمتها وطبيعتها، لكنها تبقى مترددة نتيجة صراع الحب والموت داخلها.